

(المحاضرة الحادية عشر)

ثانيا : الاسماعيلية : (تعريفها ، نشأتها ، أفكارها وعقائدها ومواقفها)

- تعريف الشيعة الاسماعيلية :

تستمد هذه الفرق اسمها من أنها خلاف الاثنا عشرية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع الذي لا تعترف الشيعة الاثنا عشرية بامامته ، وهو اسماعيل بن الامام جعفر الصادق ، ولذلك تسمى أيضا بالشيعة (السبعية) واسماعيل هو الأبن الاكبر للإمام السابع جعفر الصادق ، وكان قد توفي في حياة ابيه فاختلفت الشيعة بسبب ذلك في سوق الإمامة من بعد ، فترى الإمامية الاثنا عشرية أن الصادق نقل الامامة من بعده الى اخيه الكاظم وهو الامام السابع في سلسلة الاثنا عشرية ، أما الاسماعيلية السبعية فقد اعتقدوا بأن " النص لا يرجع القهقري والفائدة من النص بقاء الامامة في أولاد المنصوص عليه دون غيره " ، فلا يجوز غير ذلك لانها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ولا تكون الا في الاعقاب " ، ومن ثم فالامام علي رايهم بعد اسماعيل هو ابنه محمد . وهنا تفرق الاسماعيلية الى شعبتين رئيسيتين، شعبة وقفت في موت محمد بن اسماعيل (الملقب بالمكتوم)وقالت برجعته بعد موته وانتظرته مهدياً يبعث ، وهؤلاء هم القرامطة . وشعبة ساقطت الامامة من بعده في سلسلة متصلة - مع اختلاف في ترتيب اشخاصها - كانوا في رأيهم أئمة مستورين مختلفين اجتنبوا المجاهرة بالدعوة الى اللحظة التي أثمرت فيها الحركة الاسماعيلية بظهور الامام الشرعي في شخص عبيد الله المهدي - مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب - الذي هو أول الأئمة الظاهرين ، وهذه عقيدة الاسماعيلية الفاطميين بشعبتيها النزارية والمستعلية .

- موجز عن تاريخ نشأتهم

اشتدت ضربات العباسيين ومقاومتهم للحركات الشيعية بعد فشل ثورة محمد الملقب ب (ذو النفس الزكية) وهكذا اضطر أكثر الشيعة الى الاختفاء وعمدوا الى نشر دعوتهم بالتستر والكتمان وتلمسوا أماكن يخفون بها؛ ليدرؤوا عن انفسهم ما اضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة ، حتى أن محمد بن اسماعيل فر الى الري ومنها الى دماوند حيث استقر بقرية سميت محمد آباد نسبة اليه ، وسار ابناؤه على منواله فاختلفوا في خراسان وفي اقليم قندهار وفي السند واخذ دعواتهم يجوبون البلاد لجذب الاتباع اليهم . وقد اتخذ ائمة الاسماعيلية مدينة سلمية من اعمال حماة ببلاد الشام مركزا لنشر الدعوة في ارجاء العالم الاسلامي ومن اشهر نوابهم الذين تصدوا لنشر هذا المذهب ، ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الاسماعيلي حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق نفسه ، واعتقد بعض آخر انه كان يصدر في عمله عن ميول شعوبية ترمي الى مقاومة الاسلام ، ثم خلفه في زعامة الدعوة هذه ابنه عبد الله بن ميمون الذي

اتخذ من الاهوار مركزا لنشر دعوته ؛ ولما اتصل خبره بواليتها اضر له الشر فهرب عبد الله الى الشام واقام في سلمية الى أن مات فيها .

وقد وضع عبد الله بن ميمون اساس الدعوة لبث عقائد المذهب الاسماعيلي أو مذهب السبعية الذي يدعو الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وابتدع لذلك دعوة منظمة قسمها الى سبع درجات أو مراتب زيدت بعده حتى اصبحت تسعا في أيام الفاطميين ، وقد صور بعض المؤرخين (امثال دوزي، بروكلمان، نيكلسون ، فليب حتى وبنديلى جوزي) عبد الله بن ميمون " صاحب مؤامرة قوية الدعائم تم تنظيمها بمهارة فائقة ..وقد تملكت نفسه الكراهية في أبشع صورها للعرب والاحتقار للاسلام والمسلمين مدفوعا الى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة ، وقد عمل على ايجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعا مبادئها كل فرد على قدر عقله واستعداده " ، فاضطر الخلفاء الى تضيق الخناق على الشيعة عامة ، فاضطرت الاسماعيلية الى مغادرة سلمية مركز دعوتهم ومواصلة جهودهم في بلاد أكثر صلاحية لبث هذه الدعوة وهكذا نجح احد دعاة الاسماعيلية واسمه ابو عبد الله الشيعي في نشر تعاليم الاسماعيلية في بلاد المغرب ، وواتته الظروف هناك حيث ثبت مركزه فيها ، ولم يمض وقت طويل حتى غدا الشيعة اصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة الى الغرب من مدينة القيروان ، ثم انفذ عبد الله الشيعي الرسل الى ابي عبيد الله المهدي الجد الاعلى لخلفاء الدولة الفاطمية وامام الاسماعيلية آنذاك يدعوه للحضور الى افريقية فرحب عبيد الله بهذه الدعوة فوصل بلاد المغرب ودانت له ودعا الناس الى مذهب الاسماعيلية ، فدخل فيه الناس طوعا أو كرها ، ثم امتد نفوذ الاسماعيلية منها الى مصر حيث فتحها المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦١هـ/٩٦٩م ، ومن مصر انطلقت " الاسماعيلية حتى صارت تشكل حركة قوية انتشرت من سواحل الاطلس حتى الاجزاء الشرقية البعيدة عن العالم الاسلامي ، كبلاد ما وراء النهر والهند واشتدت قوتها في ايران بصورة خاصة ، حيث ظهر اعظم فلاسفة الاسماعيلية الباطنيين أمثال ابي يعقوب السجستاني ، ناصر خسرو ، ابي حاتم الرازي وحמיד الدين الكرمانى "

وخلال القرن الخامس الهجري وبعده دب الضعف والانحلال في صفوف الاسماعيلية ، وانشقت الحركة على نفسها ، وصارت فرقا مختلفة ، وقد حدث الانشقاق الاول سنة ٤١١هـ /١٠٢١م عندما اعلن الحاكم بامر الله : بان التجسيد الالهي قد حل فيه ثم اختفى - وربما مات مقتولا- فانفصلت الطائفة الدرزية عن بقية الاسماعيلية لاعتقادهم بانه لم يموت وانه سيعود فهو الامام المنتظر عند هذه الطائفة . ثم حدث الانشقاق الاخر بعد وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، حيث اكره ابنه الاكبر نزار على التخلي عن الامامة وذلك بتدبير من اخيه المستعلي الذي قبض على نزار واودعه السجن حيث لاقى فيه حتفه ، وقد سبب هذا قلقا واضطرابا شديدين في صفوف الاسماعيلية التي انشقت منذ ذلك الحين الى فرعين رئيسيين :-

أ. المستعلية : نسبة الى المستعلي ابي القاسم احمد (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) وقد انتقل مركز دعوتها الى اليمن بعد ان سقطت الدولة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين الايوبي سنة ١١٧١م ، وقد استمرت في اليمن لمدة خمسة قرون ، ثم جابهت نجاحا كبيرا في الهند ، فنقل مركز الدعوة الى كوجارت وذلك في القرن التاسع الميلادي ، ثم حدث انشقاق في صف هذا الفرع بعد وفاة الداعي السادس والعشرين داود بن عجب شاه سنة ٩٩٩هـ/١٩٥١م في مدينة (أحمد آباد) فتبعت الاكثرية ابنه داود بن قطب شاه الذي اعتبر الداعي أو الامام السابع والعشرين ، في حين تبع الفرع اليمني الداعي سليمان بن حسن (ومن هنا عرفوا بالسليمانية) . ويعتبر غلام حسن الداعي السادس والاربعين في سلسلة السليمانية اليوم ، أما داعي الفرع الداودي واسمه طاهر بن محمد فيعيش في بومبي بالهند اليوم وهو يمثل الداعي الحادي والخمسين واتباعه يسمون أيضا بالبهرة .

ب. النزارية : بعد مقتل نزار علي يد أخيه المستعلي ، نقل ابنه القاضي المهدي من قبل اتباعه المخلصين الى بلاد فارس ، حيث نشئ في خفية وكتمان على يد كبير الدعاة الحسن بن صالح . وعند وفاته سنة ٥٥٧هـ تولى ابنه حسن القاهر باحكام الله العرش جهرة ، وعلن قيام القيامة الكبرى ومجيء اسلام روحاني خالص متحرر من كل ذهن تشريعي ومن كل عبودية للقانون ، وبقية هذه الفرقة تعرف اليوم في الهند بالخوجا ، وهم يعترفون بالاغا خان زعيما روحيا لهم ، ومن اسلافهم " الحشاشون "

- تعاليم الاسماعيلية :

بعد هذا العرض التاريخي نود أن نشير الى أن الفكر الاسماعيلي في عهد الستر الأول منذ اسماعيل وحتى عبيد الله المهدي ؛ وكذا عهد الظهور في ايام الفاطميين ، قد اتسم بروح فلسفية يحاول القوم أن يلبسوها ثوبا دينيا عن طريق التأويل المسرف . وقد لاحظ المؤرخون العقليون ذلك من قديم ، يقول الشهرستاني : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج..»^(١) ، ومن قبله يقول ابو حيان راويا عن الاسماعيلية : «ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة » وهذا متفق مع ما يصرح به القوم أنفسهم والباحثون الغربيون المحايدون أيضا ، ولذا فإن وضع هذه الفرقة في أقصى طرف العقل لا يتعارض مع ما نذكر بعد من افكارهم ذات المظهر الديني ، ومنها :

١. نظرية التعليم : وهي تقوم على التشكيك في العقل وأنه قابل للخطأ والصواب ، ولذا لا ينبغي الاعتماد عليه في أمر الدين الذي يتطلب اليقين ، فالعقل وحده عاجز عن معرفة الله ومن ثم كان

(١) الملل والنحل (١/ ١٩٢-١٩٣)

من الضروري الاعتماد على مصدر آخر هو المعلم المعصوم أي الامام الاسماعيلي ، الذي هو وحده الطريق الى معرفة الله ومعرفة احكام الدين ، بل هو قوام الكون كله ، وتعاليمه التي تصل الى اتباعه عن طريق حجته ثم داعي الدعاة ثم سائر مراتب الدعوة " هي مصدر كل قانون أو حق أو تشريع " والنتيجة التي قد ينتهي اليها هذا الطريق " التعليمي " هي أن يهمل كل ابناء الدعوة عقولهم ليستسلموا لتعاليم هذا الامام الذي يدعي العصمة ولما ينسبه اليه اعوانه السريون والعنوين ، ولذا يرد عليهم الامام الغزالي وغيره بأن عاصم العقل إما أن يلتمس في العقل نفسه أي في قوانين المنطق ، أو في الشرع الذي ثبتت صحته وعصمة مبلغه بالادلة القاطعة ، وليس في العلم ومعارفه الباطنية .

٢. نظرية التوحيد : وتقوم على التنزيه المطلق كما يسمونه ، أو تعطيل الذات عن صفاتها في الحقيقة : " إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز .. وكذلك في جميع الصفات ، فان الاثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات " وهم لا يعتبرون هذا تعطيلًا ؛ إذ " التعطيل الصريح إنما يكون بأن يتوجه حرف النفي (لا) نحو الهوية قصداً كأن يقال : لا هو -ولا إله ، وليس هذا ما تقول به الاسماعيلية " ، وهذا " التوحيد " الذي يخالف صريح القرآن وإجماع المسلمين هو ما تقول به الافلاطونية في كتاب " الخير المحض " تماما .

٣. نظرية المثل والممثل .

وتقوم على المحاكاة والمقابلة بين عالم الغيب وعالم الشهادة أو - حسب المصطلحات الاسماعيلية - بين الحدود العلوية والحدود السفلية ، فكل حد هنا في عالم الدين هو مثل يمثل حداً علوياً هو ممثوله الموجود في المثل الأعلى . وهذه النظرية كما يقول أحد رجالهم المعاصرين " هي قوام عقيدة الفاطميين في التأويل وفي جميع مناسك الدين " ، والواقع أن أساس هذه " العقيدة " هو نظرية " الفيض " الافلاطونية التي استعانت بها الاسماعيلية - فيما يرى جولد تسيهر - لكي تنفذ الى صميم الديانة الاسلامية ، وتعمل على تعديل احكامها وعقائدها ، وفكرة الامامة عندهم لم تكن الا قناعاً تستتر وراءه برامجهم الهدامة ، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدبير "

فالله هو مبدع المبدعات المتعالي عن كل صفة ، عن طريق " الأمر " الذي هو الارادة الالهية ، ولذا فهو شأن إلهي أو همزة الوصل بين الله والعالم ، وليس هو من الحدود العلوية حتى يقابله مثل في عالم الدين أو الطبيعة . وعن الأمر فاض العقل ، الذي هو الخلق الأول الذي فاضت الهيولي أي الجوهر البسيط القابل للصور ، ثم الجسم الكلي .. الخ والنبي - في عالم الدين يقابل العقل أو يمثله ، والإمام يمثل النفس الكلية ، والحجة يمثل الهيولي وهكذا سائر درجات الدعوة يقابلها كائن علوي في عالم الأمر - هذا ما جرى عليه الفكر الفاطمي في تفسير ظاهر الوجود وباطنه ، كما جرى على تفسير النصوص الدينية والأحكام الشرعية حسب الطريقة نفسها - فالصلاة والزكاة ولاية

الائمة والصوم حفظ اسرارهم والحج زيارتهم ، وهكذا . ولكنهم بعد عصر " القيامة " جعلوا الامام ممثلاً للأمر وحقته للعقل والنبي للنفس ، وسائر حدود الدعوة للحدود العلوية الأخرى ونسخوا الأحكام الشرعية الظاهرية تماما اكتفاء بيوطنها . وهذا يتبين التطور العميق الذي طرأ على " عقيدتهم " أو فلسفتهم المذهبية حينذاك .

ونكتفي بهذا القدر في بيان أصول تعاليم الاسماعيلية التي تكاد تكون عديمة الصلة بعلم الكلام ، لولا أن القوم يلبسونها ثوبها دينيا من النصوص القرآنية ، التي يتوسعون في تأويلها طبقاً لمنهجهم الباطني المشار إليه آنفاً، غير أننا نحب أن نؤكد أن فكرة " القيامة والقائم " عميقة الجذور في الفكر الاسماعيلي منذ أواخر عهد الستر الأول، وقد عبر عنها إخوان الصفا بكل وضوح ، وهي مرتبطة عندهم بفكرة " الأدوار الأزلية " التي نكتفي بالإشارة إليها هنا ، والتي تمثل التفسير الاسماعيلي للتاريخ ، وقد كانت هذه الفكرة وراء انشقاق الدرور في عصر الظهور الفاطمي ، إذ اعتقد انصار الحاكم أنه القائم وألوه ، واعتقد النزاريون أنه الحسن الثاني الذي قام عام ٥٥٦هـ بينما ظل البوهرة أتباع المستعلي ينتظرونه حتى الآن ، كما كانت الفكرة وراء انشقاق البابية والبهاية عن الإثنا عشرية بل عن جسم الأمة الاسلامية في العصر الحديث .